الأزهر الآن

يعيش برئة واحدة

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

« الجامع الأزهر هو المعهد الديني العلمي الإسلامي الأكبر، والغرض منه: (١) القيام على حفظ الشريعة الغراء أصولها وفروعها، واللغة العربية، وعلى نشرهما (٢) وتخريج علماء يوكل إليهم تعليم علوم الدين واللغة في مختلف المعاهد والمدارس، ويلون الوظائف الشرعية في الدولة »

هذا هو نص المادة الأولى من قانون الأزهر الساري عليه الآن، وهو التعبير الصحيح عما تفهمه الأمة الإسلامية من مهمة هذا المعهد العتيق منذ أنشأه المعز لدين الله الفاطمي إلى هذا العهد الفاروقي السعيد، ثم إلى ما شاء الله من عهود.

وأقول: « التعبير الصحيح عما تفهمه الأمة الإسلامية من مهمته » لأني لا أريد أن أدخل في تعرف النيات التي كان يبطنها الحكام والسلطون وتدل عليها سياساتهم وأفاعيلهم في توجيه أهله وتصريف شأنه

ومن هذا النص الذي يفصح عما استقر في ضمير الأمة يتبين أن المهمة الأولى للأزهر هي القيام على هذا التراث الخالد الذي أورثنا إياه بناة مجدنا الأولون، والذي كنا به خير أمة أخرجت للناس، وأن تخرج هذا المعهد الإسلامي الأكبر للعاملين أو القضاة أو الموظفين هو أمر يأتي في المرتبة الثانية

وقد تقلبت على الأزهر في تاريخه الطويل أحوال ودول، فاستقام على الصراط السوي أحيانا، وانحرف عنه أحيانا، وكان تارة قويا غلابا يعرف رسالته، ويفرض إرادته، ويلون الحياة بلونه، ويحمل الحاكمين والمتسلطين على ما يرى في حزم وصرامة. وتارة ضعيفا عاجزا مغلوبا على أمره، يمشي في ركاب غيره، ويستوحي خططه وصوره ممن لا يدركون رسالته، ولا يعبأون بأمره، بل لقد حفظ التاريخ فيما حفظ أن الأزهر قد عطل تعطيلا تاما عشرات من السنين في بعض العهود فلم يكن به درس ولا كتاب، ولا علم ولا علماء

وإذا أردنا أن نفرق بين العصور الذهبية للأزهر، والعصور التي اضمحل فيها شأنه وأقفر واديه؛ فإننا نستطيع أن نقرر أن عصوره الذهبية هي التي كان فيها موجها للحياة مضطلعا برسالته الكبرى في القيام على حفظ الشريعة واللغة عن طريق التفرغ لها علما وعملا، وأن عصور ضعفه واضمحلاله هي العصور التي تصور فيها أنه مدرسة للتعليم والتخريج فحسب

* * *

من تأمل رسالة الإسلام وعرف أنها رسالة الرحمة العامة لهذا العالم كله، أدرك أن الأمة الإسلامية قد حملت أمانة إلهية غالية، ليست هي مجرد أن يؤمنوا بهذا الدين ويتناسلوا نسلا مؤمنا به، ولكن أن يبلغوا هذه الأمانة الإلهية تبليغا واضحا إلى كل ذي عقل في كل زمان ومكان؛ فإن هذه الرسالة هي أساس استقامة العالم ورشاده ونعمته بالخير والسعادة، ولم ينزلها الله للعرب فقط وإنما أنزلها رحمة للناس كافة

« يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا » فإذا آمن المسلمون بذلك، وأخذوا أنفسهم بمقتضياته، فقد عرفوا أنفسهم، وأدركوا قيمتهم في هذا العالم. وإذا جهلوا ذلك أو نكصوا عنه، فقد تخلوا عن شرف عظيم شرفهم الله به، وخسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وذلك هو الخسران المبين

يقول الله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون

بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقد بين لنا أن مرجع هذه الخيرية هو اضطلاعنا فى الناس بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أى مهمة الاصلاح العام والدعوة إلى الاستقامة على سنن الرشاد ، والإيمان بالله . ويقول عز وجل فى موضع آخر « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » والمعنى فى قوله « ولتكن منكم أمة » على التجريد ، أى : ولتكونوا أمة هذا شأنها ، وهذه رسالتها فى الحياة وغايتها ، تدعو إلى الخير الذى دعا الله إليه ويكون لها أثر فعال ، ورأى عام قوى فى إلزام الناس بالمعروف ، وصرفهم عن المنكر ، فإذا كنتم هذه الأمة ، فقد ضمن الله لكم الفلاح ، وإلا قضيتم أيام دهركم ضعفاء لاقيمة لكم بين الناس

وأول الوسائل التى تتوسل بها الأمة إلى الاحتفاظ بهذه الأمانة الإلهية الغالية وأدائها كما أمر الله إلى أهلها ، أن تعنى أكبر العناية بحملة التراث الأسلامى العظيم ، وأن تعمل جاهدة على تمكينهم من التقوى فيه ، والتفرغ له ، ونشره بين الأمم فى أحسن صورة وأقربها إلى القبول

إن الأمم الناهضة تخصص للدراسات العلمية طوائف من أبنائها المبرزين فيها ، وتجعلهم فى معاهد مستقلة لا هم لها إلا التوفير على هذه الدراسات والتفرغ لها ، معيشتهم مضمونة ، وأمورهم ميسرة ، وقد كفوا شأن التفكير فى أنفسهم وأهليهم وشئون حياتهم ، ولذلك تراهم يثمرون ثمرات طيبة فيما انقطعوا له ، ويعطون أممهم من العلم والشرف أضعاف ما تعطيهم من المادة والعناية . فهل نطمع من الدولة فى أن تعين الأزهر مثلا على إنشاء معهد للبحث والدرس يتعمق فى أصول الشريعة الغراء وفروعها ، ويدنى للناس ثمارها الطيبة ، فيقدم للمشتغلين بالقانون نظريات مستقيمة تنسيهم نظرياتهم ، ويقدم لأصحاب الدراسات الفلسفية نوعا جديدا من القضايا الفكرية يغذى عقولهم وقلوبهم ، ويحيى ألوانا من العلم والتفكير فى إحيائها الخير كل الخير ؟ هل نطمع فى أن تعين الدولة الأزهر على إنشاء مثل هذا المعهد ؟

إن الأزهر الآن لا يعدو أن يكون مدرسة دينية نظامية لتخريج معلمين أو قضاة شرعيين أو وعاظ ومرشدين ، وذلك هو أدنى الشطرين من مهمته التى يبينها قانونه ، ويتطلع إليه المسلمون أن يحققها . أما الشطر الأعظم فإنه معطل ، وإذا كان أهل الأزهر مسئولين عن تعطيله فإن الدولة تحمل قسطا من هذه المسئولية ، لأن الأزهر مرفق هام من مرافقها ، عليها أن تعنى به وأن تعلم السر فى عدم قيامه بأداء رسالته على الوجه الأكمل ، وأن تأخذ بيده إلى الطريق الصحيح إذا حاد عنه ، وأن تعينه على السير فيه إذا عرفه وعجز عن سلوكه

إن أزمة الأزهر فى الحقيقة ترجع إلى أمرين :

أحدهما : أن مصر قد نسيت أو أوشكت أن تنسى مكانة الأزهر فى العالم كله شرقيه وغربيه ، وأنه من أهم أسباب زعامتها الدينية والفكرية على الدول الإسلامية ، وأنها تستطيع به أن تكون فى مقام عالى كريم ، إذ تجعله مصدرا قويا لدعوة عامة إلى مبادئ تعتز بها العقول والقلوب فى عالم كثرت فيه الشرور والمطامع وأنهكته حروب الجشع والاستعمار ، وأصبح أهله فى حاجة إلى دعوة قوية صادقة تصرفه عن الشر إلى الخير ، وعن الفساد إلى الصلاح ، وما هذه الدعوة إلا دعوة الإسلام

الثانى : أن الغرب أثر فينا تأثيرا سيئا وصل الأمر فيه إلى حد الاستخفاف بديننا ، وقياسه على غيره من الأديان ، فقد أخذنا عن أوربا فيما أخذنا أن الدين يجب أن يكون بعيدا عن ميدان السياسة والحكم ، وأن يقصر على الأخلاق والتهذيب والأمور الروحية ، وإذا صح أن يقال عن دين من الأديان ، فإنه لا يقال عن الإسلام دين العلم والعقل والعزة والقوة ، وقد تكفل بوضع منهاج صالح للحياة السعيدة بشهادة أعدائه وأصدقائه

هذان هما الأمران اللذان يرجع إليهما ما نراه من إهمال للأزهر ، واكتفاء بأدنى غايته ، وهو أن يكون معهدا للتعليم والتخريج ، دون أن يكون حاميا للشريعة واللغة ، مبلغا تراثهما إلى الناس أجمعين . وما مثل الأزهر على هذه الحال إلا كمثل مريض يعيش بإحدى رئتيه ، فليس العجب أن يعيش ضعيفا عاجزا ، وإنما العجب فى أن يطول على ذلك بقاؤه ، ولكل أجل كتاب

محمد محمد المدنى
من علماء الأزهر